الرّحمة المحمّديّة

محل التّأسي وبريد التّرقي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدالله رب العالمين

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي الى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم

أما بعد،



- **سابقة**

قال الله سبحانه وتعالى **«لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيرا»**، وهي أصل من أصول العون على السير الحثيث إلى باب الله الذي من صوله وطرقه استدعاه وأعطاه ورفاه، فلا وصول إلا بدليل ولا دليل موصل إلا بعد أن يكون خبر الطريق، وفقه السير فيها بالتحقيق، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو سيد خبراء السير إلى الله وأشرف من عرف الطريق الموصل إليه عز وجل.

ولذلك كان حرص أولياء الله والمشايخ الدالين على الله في سيرهم وفي تسليكهم لغيرهم أن يكون مبنيا على الهدي المحمدي ومكتفيا للنهج الأحمدي المصطفي، فلذلك وصلوا ووصّلوا، وسلكوا وسلّكوا وبلغوا وبلّغوا رضي الله عنهم، حتى إنهم كانوا يتنفسون الحقيقة المحمدية في حركاتهم وسكناتهم، ويكررون المشكاة الأحمدية في أحوالهم وأقوالهم.

ولم يكن ادعاؤهم التسنن والاقتداء ولا زعمهم الاتباع والاقتداء منحصرا في رسوم تظهر على أبدانهم، ولا لباس يميزهم عمن سواهم، وإنما كان محل قدوتهم أخلاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم الظاهرة وأحواله الباطنة فيما للخلق حظ فيه ومكنة للتخلق بمقتضاه والتحقق بمعناه.

قال أبو القاسم القشيري رحمه الله في «لطائف الإشارات» شارحا معنى آية. الاقتداء: «كان صلة، ومعناها: لكم في رسول الله أسوة حسنة، به قدوتكم، ويجب عليكم متابعته فيما يرسمه لكم.

وأقوال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأفعاله على الوجوب بأفعاله وأقواله، وإن كان غير مكتسب له فهي خصوصية له، لا ينبغي لأحد أن يتعرض. لمقابلته لاختصاصه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعلو رتبته ... انتهى المقصود منه.

- **الرسول رحمة الله للعالمين**

وعليه، فإن. باب الدعوة قائم على الرحمة المحمدية، وتربية النشء متوقف على حقيقة الرحمة المحمدية، ومن. سلك مسلك. الدلالة على الله والنيابة فيها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، متجردا من خلق الرحمة ومسلخا من صفة الحلم والعفو والرأفة، فلا حظ له في الاهتداء ولا حق له في الإرشاد ولو زعم ذلك بالادعاء.

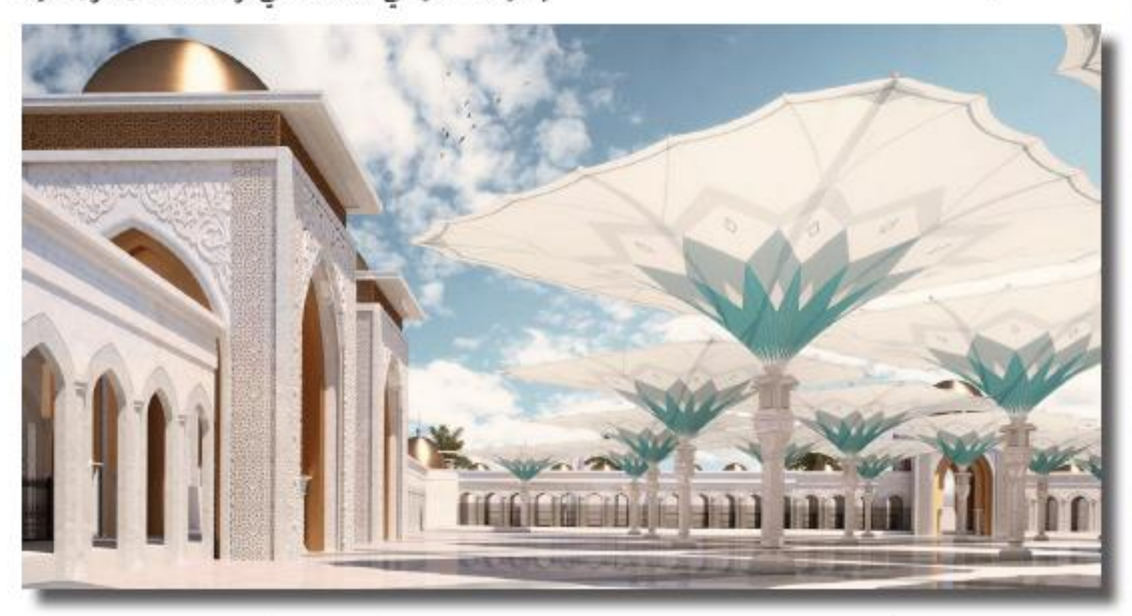
فإن الحديث عن رحمة النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن نتجاوز فيه أو أن نرغب إليه دون المرور، بل الوقوف على المحطات القرآنية، التي أشارت إلى جميل صفاته وعلو أخلاقه وسعة رحمانية الله به، بعبارات غاية في البلاغة وآية في الإبداع والفصاحة، وصيغ مثالا في الإيجاز المتضمن لطائف الإعجاز، وأخرى. نموذجا في تطويل المحتوى على ضروريات التفصيل.

فمنها قوله تعالى كما **«وإنك لعلى خلق عظيم»** القلم/ 4، ومنها قوله تعالى **«وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»** الأنبياء/ 107، ومنها تعالى: **«والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى، والآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى»** الضحى/1ـ5، ومنها قوله عز وجل، **«وما الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله. معذبهم**

وهم يستغفرون» الأنفال/33، وغيرها من الآيات التي دلت تصريحا وتلميحا إلى عظيم قدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسعة رحمته بالخلق عموما وبالمؤمنين خصوصا.

وهو استعمال دقيق لمن عرف الفرق بين اللفظين في حقيقتي النبوة والرسالة.

فالناس لا يعرفون في الغالب عن سيدنا محمد إلا رسالته، وهي الصفة التي لزمته منذ أن نزل عليه



وسأحاول أن أقتصر في هذه العجالة على النظر في قوله تعالى «**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إلا إلا هو عليه تو كلت وهو رب العرش العظيم**»، التوبة 128ـ129.

وليكن أول ما يثير انتباهنا هنا هو أن الخبر الذي جاء في هذه الآية استأنفه الحق تعالى بقسم يدل على التوكيد، وهو «لقد»، ومعلوم أن الصادق في نفسه لا يقسم ليصدق في خبره، بل يقسم ليؤكد على ما ينطوي عليه خبره.

وهو الحال هنا، فإن الحق سبحانه وتعالى أصدق في وعده وخبره، وإنما أقسم هنا توكيدا على عظيم قدر المخبر به هنا، ولفتا للأذهان والأبصار والبصائر لعلو شأن المتحدث عنه، وهو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.، الرحمة المهداة.

- **بين النبوة والرسالة**

المتأمل في هذه الآية خاصة يرى أن القرآن استعمل في هذا الخبر لفظة «الرسول» بدل «النبي»،

الوحي وهو ابن أربعين سنة أما نبوته فكانت صفة له قبل أن يخلق هيكله الشريف.

فقد روى الحاكم في «مستدركه» مرفوعا: «كنت نبيا وآدم منجدل في طينته»، وفي رواية «***وآدم بين الطين والماء***»، وفي أخرى «وآدم بين الروح والجسد».

فهذا حديث يفيد أسبقية نبوته صلى الله عليه وآله وسلم على رسالته، ولذلك عبر القرآن عن أوليته باسم أحمد وعن آخريته باسم محمد.

ولك أن تفهم بناء على هذا، كيف أن سيدنا عيسى لما بشر برسول الله صلى الله عليه وسلم عبر بأحمد كما في قوله تعالى «***ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد***»، الصف/ 5

- **تأملات في آية الرحمة والرأفة**

قوله (من أنفسكم) أي من جنس البشر، وإنما كانت بعثته لهم ولغيرهم إشارة إلى تفضيل الجنس البشري على غيره من الأجناس.

وقد قرأ ابن عباس وابن محيسن والزهري (من أنفسكم) من النفاسة، أي من خيركم قبيلة

وأسرة، كما ورد في الصحيح عن واثلة بن الأسقف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ***«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى بني هاشم من كنانة واصطفاني من بني هاشم واصطفى قريشا من بني هاشم، فأنا خيار من خيار»***.

قوله تعالى (عزيز عليه ما عنتم) أي أن كل ما يشق على أمته شاق عليه هو أيضا، وما ذلك إلا لمزيد رحمته وواسع رأفته بأمته، بل بغيرها من الأمم، بل إن رحمته وسعت الكل، بما في ذلك الدواب والبهائم.

فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم منبها على عظيم. جرم المؤذي هرة: ***«دخلت النار امرأة في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»***.

(حريص عليكم)، فهذه الكلمة هي التي جمعت معاني الرحمة المهداة في جناب الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم، فإن حرصه على أمته وعلى غيرها شمل كل جانب من جوانب سعادة البشرية، فاشتغل به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، واهتم له وحرص عليه ، ولنذكر هنا صورا من حرصه على الناس عموما وعلى المؤمنين خاصة:.

حرصه على إنقاذ أمته يوم المحشر، فقد روى البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة قال: *أُتِيَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ منها نَهْسَةً، ثُمَّ قال: أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وهل تَدْرُونَ مِمَّ ذلكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ في صَعِيدٍ واحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي ويَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، وتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ والكَرْبِ ما لا يُطِيقُونَ ولا يَحْتَمِلُونَ، فيَقولُ النَّاسُ: ألَا تَرَوْنَ ما قدْ بَلَغَكُمْ، ألَا تَنْظُرُونَ مَن يَشْفَعُ لَكُمْ إلى رَبِّكُمْ؟ فيَقولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: علَيْكُم بآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عليه السَّلَامُ فيَقولونَ له: أنْتَ أبو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بيَدِهِ، ونَفَخَ فيكَ مِن رُوحِهِ، وأَمَرَ المَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إلى رَبِّكَ، ألَا تَرَى إلى ما نَحْنُ فيه، ألَا تَرَى إلى ما قدْ بَلَغَنَا؟ فيَقولُ آدَمُ: إنَّ رَبِّي قدْ غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وإنَّه قدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إلى غيرِي، اذْهَبُوا إلى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فيَقولونَ: يا نُوحُ، إنَّكَ أنْتَ أوَّلُ الرُّسُلِ إلى أهْلِ الأرْضِ، وقدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إلى رَبِّكَ، ألَا تَرَى إلى ما نَحْنُ فيه؟ فيَقولُ: إنَّ رَبِّي عزَّ وجلَّ قدْ غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وإنَّه قدْ كَانَتْ لي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا علَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إلى غيرِي، اذْهَبُوا إلى إبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إبْرَاهِيمَ فيَقولونَ: يا إبْرَاهِيمُ أنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وخَلِيلُهُ مِن أهْلِ الأرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إلى رَبِّكَ ألَا تَرَى إلى ما نَحْنُ فيه، فيَقولُ لهمْ: إنَّ رَبِّي قدْ غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وإنِّي قدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ - فَذَكَرَهُنَّ أبو حَيَّانَ في الحَديثِ - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إلى غيرِي، اذْهَبُوا إلى مُوسَى فَيَأْتُونَ، مُوسَى فيَقولونَ: يا مُوسَى أنْتَ رَسولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ برِسَالَتِهِ وبِكَلَامِهِ علَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إلى رَبِّكَ، ألَا تَرَى إلى ما نَحْنُ فيه؟ فيَقولُ: إنَّ رَبِّي قدْ غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وإنِّي قدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إلى غيرِي، اذْهَبُوا إلى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فيَقولونَ: يا عِيسَى أنْتَ رَسولُ اللَّهِ، وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ ورُوحٌ منه، وكَلَّمْتَ النَّاسَ في المَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إلى رَبِّكَ ألَا تَرَى إلى ما نَحْنُ فيه؟ فيَقولُ عِيسَى: إنَّ رَبِّي قدْ غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، ولَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إلى غيرِي اذْهَبُوا إلى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فيَقولونَ: يا مُحَمَّدُ أنْتَ رَسولُ اللَّهِ وخَاتِمُ الأنْبِيَاءِ، وقدْ غَفَرَ اللَّهُ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إلى رَبِّكَ ألَا تَرَى إلى ما نَحْنُ فيه، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فأقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عزَّ وجلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِن مَحَامِدِهِ وحُسْنِ الثَّنَاءِ عليه شيئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ علَى أحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ فأرْفَعُ رَأْسِي، فأقُولُ: أُمَّتي يا رَبِّ، أُمَّتي يا رَبِّ، أُمَّتي يا رَبِّ، فيُقَالُ: يا مُحَمَّدُ أدْخِلْ مِن أُمَّتِكَ مَن لا حِسَابَ عليهم مِنَ البَابِ الأيْمَنِ مِن أبْوَابِ الجَنَّةِ، وهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيما سِوَى ذلكَ مِنَ الأبْوَابِ، ثُمَّ قالَ: والَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، إنَّ ما بيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِن مَصَارِيعِ الجَنَّةِ، كما بيْنَ مَكَّةَ وحِمْيَرَ - أوْ كما بيْنَ مَكَّةَ وبُصْرَى.*

حرصه صلى الله عليه وآله وسلم على إنقاذ غير المسلمين من الكفر والفرح بذلك، فقد روى مسلم في «صحيحه» عن أنس قال: كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: «أسلم» فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم، فأسلم فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار».

حرصه على التيسير على أمته في التكاليف: إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم كما في البخاري عن أنس: «*إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وبشيء من الدلجة*».

ومعلوم أن كل أحكام الشريعة ميسرة، وأن دائرة التحريم. فيها ضيقة، ودائرة المباح فيها واسعة.

وعلى هذا جرت العادة في الشريعة الإسلامية بخلاف شرائع سابقة لها كان فيها التكليف والتشدد، كما صوره القرآن في غير مناسبة.

حرصه على دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، فقد كان شديد الحرص على هدايتهم وكان يدعو لهم، مع عداوتهم للإسلام وعدائهم للمسلمين، وقد عفا عن المحاربين له وقاتلين قرابته وأصحابه، ولا



أحد ينسى. قصة قوله «*اذهبوا فأنتم الطلقاء*».

قوله تعالى (**بالمؤمنين رءوف رحيم**) عطف الخاص على العام، فبعد أن بين أن الرحمة المهداة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عامة لكل موجود أشار إلى اختصاصه أتباعه وأحبابه وأمته برحمة معينة، وهي الرأفة والرحمة.

وفي التعبير من البيان والبلاغة ما تعجز ألسنة الفصحاء عن الإتيان بمثله، إذ الرأفة والرحمة تجتمعان في صورة موحدة عامة، لكن بينهما فرق دقيق، وكلاهما اجتمعا في نبي الرحمة.

أما الرأفة فهي من أثر الشفقة والحرص، الذي يترتب عليه دفع كل المضار على المرؤوف به، وكل ما منعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكرهه فهو من أثر رأفته كما قال القرآن (**ويحرم عليهم الخبائث**) الأعراف/ 122.

وأما الرحمة فهي من أثر الإحسان الذي يترتب عليه جلب المنافع، وما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا بخير وما بين إلا خير، والقرآن يقول: (**يحل لهم الطيبات**) الأعراف/122.

هذا، وإن المتبصر في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرى نماذج الرحمة المهداة بما لم يوجد له مثيل في تاريخ البشرية.

• لاحقة بقلم العارف بالله الحاج مالك سه

قال العارف بالله العلامة سيدي الحاج مالك بن عثمان سه، رضي الله عنه في «خلاصة الذهب»

وقد توالت على الآفاق واتصلت

بشرى الهواتف في ميلاده الكرم

خرت لمولده الأوثان وانبعثت

ثواقب الشهب ترمي الجن بالرجم

تزلزلت أسطوانات الملوك ككعـ

بة ثلاثة أيام فلم تقم

مالت مميلا مع الأركان أو سجدت

تعظيم مستوجب التعظيم محترم

وفي الولادة منه الجفنة انفلقت

والانفلاق عجاب عند قومهم

وقد هوت شرفات البيت وانهدم ال

إيوان والماء مثل النار في الزرم.

بقلم الفقير إلى الله تعالى
عدنان بن عبد الله زهار
التجاني المغربي
الله وليه